

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ مُخْتَلَفِ الطَّبَائِعِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَقَدَّرَ فَهَدَى، سُبْحَانَهُ فَطَرَ النَّاسَ عَلَى طَبَائِعٍ مُخْتَلَفَةٍ وَأَمْرَجَةَ مُتَعَدِّدَةً، ثُمَّ أَمَرَهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَائِعِهِمْ أَنْ يَتَعَارَفُوا، وَيَتَعَاوَنُوا وَيَتَرَاحَمُوا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ وَالطَّرِيقَةِ الْقَوِيمَةِ، فَأَرْشَدَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُحِبُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْ فُنُونِ السُّلُوكِ وَالْآدَابِ، وَمَرَأَشِدَ الْخَيْرِ وَالصَّوَابِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ:

فِي رُقْعَةِ الْحَيَاةِ الْوَاسِعَةِ تُصَادِفُكَ أَجْنَاسٌ وَأَصْنَافٌ مِنَ النَّاسِ، يَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَبِيعَةً تَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِ، وَصِفَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنْ بَعْضِهَا، تَتَأَثَّرُ سَلْبًا وَإِجَابًا بِالْعَوَامِلِ الْوَرِاثِيَّةِ وَالْمَنَاخَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْبَيْئِيَّةِ، قَلَّمَا تَتَوَافَرُ فِي اثْنَيْنِ يَلْتَقِيَانِ عَلَى مَصْلَحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَوْ حَاسَبَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى طَبَائِعِهِمْ مَا التَقَى اثْنَانِ عَلَى بِنَاءِ الْحَيَاةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْلِبُ عَلَى طَبِيعِهِ الْغَضَبُ، وَلَوْ حَاسَبْتَهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَانْقَطَعَتْ حَبَائِلُ الْإِتِّصَالِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَتَحَوَّلَتِ الْحَيَاةُ بَيْنَكُمَا إِلَى مَعَارِكٍ مُتَلَحِّقَةٍ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ، وَلَرُبَّمَا تَكُونُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ الْغَضُوبُ هِيَ الزَّوْجَةُ، أَوْ تَكُونُ هِيَ الزَّوْجُ، وَلَكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا كَيْفَ تَكُونُ الْحَيَاةُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ لَا يَتَفَهَّمُ أَحَدُهُمَا طَبِيعَةَ الْآخَرِ. وَفِي الْحَيَاةِ أَيْضًا تُصَادِفُكَ شَخْصِيَّاتٌ حَسَّاسَةٌ وَمَا أَكْثَرُهَا، تَجِدُهَا كَثِيرَةَ الْحُزْنِ شَدِيدَةَ التَّحَسُّسِ حَتَّى مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ لَا تَحْسُبُ لَهَا شَيْئًا، وَلَوْ اتَّخَذْتَ مَوَاقِفَ غَضَبٍ مِنْ كُلِّ هَؤُلَاءِ لَمَشَيْتَ فِي الْحَيَاةِ وَحَدِّكَ، وَاسْتَوْحَشْتَ مِنَ الدُّنْيَا. إِنَّ هَذِهِ الْمَفَارِقَاتِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، يَنْبَغِي أَلَّا يُقْلَقَكَ كَثِيرًا بِقَدْرِ مَا يَدْفَعُكَ إِلَى التَّمَاسِ طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةٍ فِي التَّعَامُلِ مَعَهَا، وَقَدْ وَجَّهْنَا دِينَنَا الْحَنِيفُ

إِلَى ضَرُورَةِ الْإِتْقَانِ حَوْلَ مَنْهَجِ مُوَحَّدٍ فِي تَعَامُلِ النَّاسِ مَعَ بَعْضِهِمْ يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ الْمَحَبَّةِ وَالْتِعَاوُنِ، وَالتَّزَرُّرِ وَالتَّأَخِي، وَيَتَجَاوَزُ الْهَنَاتِ الصَّغِيرَةَ وَالْأَخْطَاءَ الْقَلِيلَةَ، مَنْهَجِ يَعُدُّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً فِي الدِّينِ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا إِخْوَةً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(١)</sup>، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مِنْ طَبِيعَتِهِ الْخَطَأَ، وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْمَدَارِكِ وَالْفِطْنَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالذِّكَاةِ؛ وَجَبَ مُرَاعَاةَ الطَّبَائِعِ الْمُخْتَلَفَةِ وَالْإِعْتِمَادَ عَلَى مَنْهَجِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُ مِنْ خِلَالِهِ التَّعَامُلَ مَعَ كُلِّ هَذِهِ الْمَفَارِقَاتِ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ دَرَايَةٌ بِطَبِيعَةِ أَخِيهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

إِنَّ مَعْرِفَةَ طَبِيعَةِ الْمَرْءِ تُسَاعِدُ عَلَى اخْتِيَارِ الطَّرِيقَةِ الْمُنَاسِبَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْكَمَ النَّاسِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ طَّبَائِعِ النَّاسِ الْمُخْتَلَفَةِ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَنْهَجِ الْإِسْلَامِ فِي حَرَكَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمْ، وَنَمَازِجِ تَعَامُلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَعَ هَذِهِ الطَّبَائِعِ كَثِيرَةً جِدًّا حَقَلَتْ بِهَا السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الْعَطْرَةَ، مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَ فِي يَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ عِنْدَمَا بَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَدَدًا مِنَ الْمُفَاوِضِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ كَلِمًا جَاءَ أَحَدُهُمْ فَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعِيدٍ أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِطَبِيعَتِهِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَعَامَلُوا مَعَهُ بِمَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ أَوْ تِلْكَ الصِّفَةَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ قَالَ: هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبَدْنَ فَابْعَثُوها لَهُ - أَيِ أَرْسَلُوا قُطْعَانَ الْهَدْيِ أَمَامَكُمْ لِيَرَاهَا -، فَبَعَثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يَلْبُونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ الرَّجُلُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لَهُؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، ثُمَّ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ - أَيِ سَهَّلَ اللَّهُ لَكُمْ مُهِمَّتَكُمْ بِهَذَا الرَّجُلِ -، وَهَكَذَا كَانَ يُرَاعِي النَّبِيُّ ﷺ نَفُوسَ النَّاسِ وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنْ طَبْعٍ، فَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْفَخْرَ أَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمَكَانَةِ مَا تَحْفَظُ لَهُ

(١) سورة الحجرات / ١٠.

(٢) سورة الحجرات / ١٣.

طَبَعَهُ فِي الْحُدُودِ الطَّبِيعِيَّةِ، كَمَا فَعَلَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ عِنْدَمَا قِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا، فَقَالَ: ((نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ))، وَمَوَاقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ قَائِمَةٌ عَلَى مُرَاعَاةِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ النَّفْسِيَّةِ وَالطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، يَتَعَلَّمُ مِنْهَا أَصْحَابُهُ قَوَاعِدَ السُّلُوكِ، وَطَرَائِقَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ. أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ:

لَقَدْ حَدَّدَ الْإِسْلَامُ مَجْمُوعَةً مِنَ الطَّرُقِ وَالْأَسَالِيبِ فِي جَذْبِ قُلُوبِ النَّاسِ وَكَسْبِ مَحَبَّتِهِمْ، عَلَى اخْتِلَافِ طَبَائِعِهِمْ وَأَمْرَجْتَهُمْ، وَسَوْفَ نَذْكُرُ هُنَا بَعْضًا مِنْهَا، وَأَوَّلُ هَذِهِ الطَّرُقِ - أَخِي الْمُسْلِمِ - التَّبَسُّمُ؛ فَالتَّبَسُّمُ خُلُقٌ يَنْبَغِي أَلَّا يُفَارِقَكَ أَبَدًا، وَقَدْ جَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَةً تَكْسِبُ بِهَا الْأَجْرَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ))، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَثِيرَ التَّبَسُّمِ حَتَّى قَالَ عَنْهُ جَرِيرُ الْبَجَلِيِّ: ((مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا ابْتَسَمَ)). إِنَّ الْإِبْتِسَامَةَ رِسَالَةَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمِفْتَاحُ الْقُلُوبِ الْمُغْلَقَةِ، فَإِذَا لَقِيتَ أَخَاكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِالْإِبْتِسَامَةِ فَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّكَ تُعَبِّرُ لَهُ عَمَّا فِي قَلْبِكَ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ دَفْعُ الْكَلِمَةِ السَّيِّئَةِ بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ. فَرُبَّ كَلِمَةٍ شَرٌّ تَمُوتُ إِذَا أَهْمَلَهَا النَّاسُ وَلَمْ يَهْتَمُّوا بِهَا، وَرُبَّ كَلِمَةٍ شَرٌّ تَنَامَتْ وَزَادَ الْإِهْتِمَامُ بِهَا حَتَّى أُحْرِقَتْ حَاضِرَ النَّاسِ وَمُسْتَقْبَلَهُمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ أَوْقَدُوا بِهَا نِيرَانَ الْقُلُوبِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ السَّيِّئَةَ تَصْدُرُ مَرِيضَةً سَقِيمَةً لَا تَقْوَى عَلَى اخْتِرَاقِ الْقُلُوبِ إِلَّا إِذَا فُتِحَ لَهَا الْبَابُ، وَسُمِّحَ لَهَا بِالِدُخُولِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تُوَاجَهَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ السَّيِّئَةُ وَالتَّصَرُّفَاتُ الْخَاطِئَةُ بِالْحُسْنَى، وَأَنْ تُرَدَّ بِاللُّطْفِ وَالتَّعَقُّلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وَالكَلِمَاتُ السَّيِّئَةُ سُرْعَانَ مَا تَتَحَوَّلُ إِلَى عَكْسِهَا عِنْدَمَا تُدْفَعُ بِالْحُسْنَى؛ لِتَعُودَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ مَوَدَّةٌ مَا عَرَفْتَ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، إِنَّ الْكَلِمَةَ السَّيِّئَةَ قَدْ تَبْدُو أَوَّلَ الْأَمْرِ

(١) سورة المؤمنون / ٩٦ .

(٢) سورة فصلت / ٣٤ .

صَغِيرَةً؛ فَيَنْفُخُ الشَّيْطَانُ فِي مَعْنَاهَا حَتَّى تَتَعَاطَمَ فِي قَلْبِ مَنْ يَسْمَعُهَا، فَتَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مَوَاقِفُ خَطِيرَةٌ وَتَصْرَفَاتٌ مُتَهَوِّرَةٌ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ أَنْ يُجَنَّبُوا أَنْفُسَهُمْ كَلِمَاتِ السُّوءِ، وَأَنْ يَتَعَوَّدُوا الْقَوْلَ الْحَسَنَ؛ قَطْعًا لِذَابِرِ الشَّيْطَانِ وَمَكَايِدِهِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١)، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ حَدَّثَ يَعْقُوبُ ابْنَهُ يُوسُفَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مِنْ هَذَا الْكَيْدِ الشَّيْطَانِيِّ فِي إِفْسَادِ الْقُلُوبِ، وَإِسْعَالَ نِيرَانِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ، فَقَالَ: ﴿يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رِيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢)، وَاعْلَمْ - أَخِي الْمُسْلِمَ - أَنَّ الْكَلِمَةَ السَّيِّئَةَ الَّتِي تَصْدُرُ مِنْ أَخِيكَ لَيْسَ لَهَا جُذُورٌ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَقْوَى عَلَى الْبَقَاءِ أَبَدًا، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَدْفَعَهَا بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ لَتَنْتَبِتَ بِهَا شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ، وَتَقْوَى فِيهَا أَغْصَانُ الْإِخْوَةِ، وَتَنْتَعِشَ تَحْتَ ظِلَالِهَا قُلُوبُ الْعِبَادِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٣).

عِبَادَ اللَّهِ:

مِنْ طُرُقِ التَّعَامُلِ الصَّحِيحِ مَعَ النَّاسِ بِمُخْتَلَفِ طَبَائِعِهِمْ تَجَنَّبُ جَرْحَ الْمَشَاعِرِ وَتَسْجِيلَ الْإِهَانَاتِ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ النَّصِيحَةِ، لِأَنَّ النَّصِيحَةَ إِذَا كَانَتْ فِي جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ تَكُونُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى جَرْحِ الْمَشَاعِرِ، وَتَحْمَلُ مَعْنَى التَّوْبِيخِ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ، وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ: ((مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا، وَمَا بَالُ أَنْاسٍ يَعْمَلُونَ كَذَا))، فَجَرْحُ الْمَشَاعِرِ لَا يَسْمَحُ بِاسْتِمْرَارِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا

(١) سورة الإسراء / ٥٣ .

(٢) سورة يوسف / ٥ .

(٣) سورة إبراهيم / ٢٤-٢٦ .

يُؤَدِّي إِلَّا إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْكِرَاهِيَةِ وَالْبَغْضَاءِ، ذَلِكَ لِأَنَّ مَشَاعِرَ الْإِنْسَانِ هِيَ رُوحُهُ الَّتِي يَعْيشُ بِهَا، وَوَجْهُهُ الَّذِي يَلْقَى بِهِ الْآخِرِينَ، فَلَا يَسْمَحُ لِأَيِّ أَحَدٍ أَنْ يَنَالَهُ بِسُوءٍ، وَفِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ نَمَازِجٌ رَائِعَةٌ فِي مُرَاعَاةِ مَشَاعِرِ النَّاسِ وَعَدَمِ إِحْرَاجِهِمْ، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ الْحَكَمِ السُّلَمِيُّ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَاتَّكَلْتُ أُمَامَهُ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونَنِي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - دَعَانِي، فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي - أَيَّ مَا نَهَرَنِي - وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، وَإِنَّمَا قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ)).

فَانْقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ -، وَتَفَهَّمُوا مَشَاعِرَ الْآخِرِينَ، وَاتَّخِذُوا مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ قُدْوَةً فِي شُؤُنِ حَيَاتِكُمْ وَتَعَامُلِكُمْ مَعَ أَجْنَاسِ الْبَشَرِ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يُغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ.

\*\*\* \*\*

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمَرَ عِبَادَهُ بِالْخَلْقِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِي الصَّالِحِينَ، وَتَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ:

إِنَّ طَبِيعَةَ الْمَرْءِ لَيْسَتْ عُدْرًا فِي ارْتِكَابِهِ الْخَطَأَ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَجْعَلُ فِي امْرِئٍ طَبِيعَةً لَا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِهَا ثُمَّ يُحَاسِبُهَا عَلَيْهَا، كَلَّا فَالطَّبَائِعُ حَالٌ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ تَكْيِيفَهَا وَفَقَّ أَمْرٌ



الله تعالى، وبالطريقة التي يرضاها سبحانه، يقول الله جل في علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، وفي القرآن الكريم أمثلة على طبائع الأنبياء - عليهم السلام - غير أن كل واحد منهم لم يخرج في طبيعته عن الحق، فموسى - عليه السلام - يتحدث القرآن عن موقف غضبه، وكيف كان يواجه المنحرفين بطريقة شديدة حين عبدوا العجل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۗ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۗ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقد كانت كلها مواقف صحيحة يفرضها المقام، إلا أن طبيعة المرء هي التي تختار طريقة التعامل، فهارون - عليه السلام - كان تصرفه مع الموقف نفسه مختلفاً، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>، وهكذا فإن توجيه الطبائع إلى الحق في مقدور الإنسان، من خلال التزامه منهج الأخلاق في الإسلام، واتباعه هدي الأنبياء - عليهم السلام -، أما ترك الطبائع تتحكم في النفس، وتقود صاحبها إلى الخطأ وارتكاب المحرمات؛ فإن ذلك تصرف غير مقبول، ويبقى أن المسلم مطالب بفهم هذه الطبائع وتقدير مواقف أصحابها، من منطلق الإخلاص لله، والرحمة بالناس، والرغبة في إصلاحهم والتماس طرائق السعادة لهم، وهي المعاني التي بيّنها الله تعالى لنبيه ﷺ في قوله مخاطباً له: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الرعد / ١١ .

(٢) سورة الأعراف / ١٥٠ .

(٣) سورة طه / ٩٠-٩١ .

(٤) سورة آل عمران / ١٥٩ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - ، وَتَعَامَلُوا مَعَ طَبَائِعِ النَّاسِ بِهَذَا السُّلُوكِ الْإِيمَانِيِّ الْعَظِيمِ ،  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ فَهْمَ الطَّبَائِعِ وَمُرَاعَاةَ الْمَشَاعِرِ مِنْهَجٌ شَرْعِيٌّ وَمَطْلَبٌ اجْتِمَاعِيٌّ ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ  
رَبُّ الْأُسْرَةِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَوْلَادِهِ ، وَالْمَسْئُولُ مَعَ مُوظَّفِيهِ وَعَمَّالِهِ ، وَالْمُعَلِّمُ مَعَ طُلَّابِهِ ،  
وَكُلٌّ فَرْدٌ مِنْ مَنَّا مَعَ مَنْ يَتَعَامَلُ مَعَهُ فِي حَيَاتِهِ .

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِينَ ، وَقَائِدِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ ، فَقَدْ أَمَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى  
بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ عَزَّ قَائِلًا عَلِيمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ  
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١) .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ وَسَلَّمْتَ عَلَى  
سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ،  
كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ،  
وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ  
أَجْمَعِينَ ، وَعَنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ  
الرَّاحِمِينَ .

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا ، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا ، وَلَا تَدْعُ  
فِينَا وَلَا مَعَنَا شَقِيًّا وَلَا مَحْرُومًا .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالعَفَافَ وَالعَنَى .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كُلًّا مِنَّا لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا ، وَقَلْبًا خَاشِعًا مُنِيبًا ، وَعَمَلًا  
صَالِحًا زَاكِيًّا ، وَعِلْمًا نَافِعًا رَافِعًا ، وَإِيمَانًا رَاسِخًا ثَابِتًا ، وَيَقِينًا صَادِقًا خَالِصًا ، وَرِزْقًا حَلَالًا  
طَيِّبًا وَاسِعًا ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .

اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَحِّدِ اللَّهُمَّ صُفُوفَهُمْ ، وَأَجْمِعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَاكْسِرْ  
شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ ، وَاكْتُبِ السَّلَامَ وَالْأَمْنَ لِعِبَادِكَ أَجْمَعِينَ .

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزِّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.  
اللَّهُمَّ رَبَّنَا اسْقِنَا مِنْ فَيْضِكَ الْمِدْرَارِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الذَّاكِرِينَ لَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،  
الْمُسْتَغْفِرِينَ لَكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأَسْحَارِ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي  
ثَمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وَكُلِّ أَرْزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّكَ  
سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللَّهِ :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ  
يُعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.